

مكتبة مشكاة الإسلامية

زاد المسير في علم التفسير

ابن الجوزي

سورة الدخان

وهي مكية كلها باجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

{ح} * وَ لِكِتَابٍ لُمُيِّنِينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ *
* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ *
رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ {

قوله عز وجل: {حم} * وَ لِكِتَابٍ لُمُيِّنِينَ { قد تقدم بيانه [المؤمن] و[الزخرف] وجواب القسم {إنا أنزلناه} والهاء كناية عن الكتاب وهو القرآن {فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ} وفيها قولان:

أحدهما: أنها ليلة القدر وهو قول الأكثرين، وروى عكرمة عن ابن عباس قال: أنزل القرآن من عند الرحمن ليلة القدر جملة واحدة فوضع في السماء الدنيا ثم أنزل نجوماً وقال مقاتل: نزل القرآن كله في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. والثاني: أنها ليلة النصف من شعبان قاله عكرمة.

قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ} أي مخوفين عقابنا. {فِيهَا} أي في تلك الليلة {يُفْرَقُ كُلُّ} أي يفصل. وقرأ أبو المتوكل وأبو نهيك ومعاذ القاريء {يُفْرَقُ} بفتح الياء وكسر الراء كل بنصب اللام. {أَمْرٍ حَكِيمٍ} أي محكم قال ابن عباس يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحاج، وإنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى وعلى ماروي عن عكرمة: أن ذلك في ليلة النصف من شعبان. والرواية عنه بذلك مضطربة قد خولف الراوي لها فروي عن عكرمة أنه قال في ليلة القدر وعلى هذا المفسرون.

قوله تعالى: {أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا} قال الأخفش: أمراً ورحمة منصوبان على الحال المعنى إنا أنزلناه أمراً وراحمة بضم الرحمة. قال الزجاج: ويجوز أن يكون منصوباً ب {يُفْرَقُ} بمنزلة يفرق فرقا لأن أمراً بمعنى فرقا. قال الفراء: ويجوز أن تنصب الرحمة بوقوع مرسلين عليها فتكون الرحمة هي النبي صلى الله عليه وسلم. وقال مقاتل: مرسلين بمعنى منزلين هذا القرآن أنزلناه رحمة لمن آمن به. وقال غيره: أمراً من عندنا أي إنا نأمر بنسخ ما ينسخ من اللوح {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} الأنبياء {رَحْمَةً} منا

بخلقنا { رَبِّ * } السَّمَوَاتِ { قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر رب بالرفع.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم { رَبِّ } بكسر الباء. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله { بَلْ هُمْ } يعني الكفار { فِي شَكٍّ } مما جنّاهم به { يَلْعَنُونَ } يهزؤون به.

{ وَ زَاتِقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا كَشِفْ عَنَّا لِعَذَابِنَا إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنِي لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّجَنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوْا لِعَذَابِنَا قَلِيلاً إِنكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ لِبَطْشَةِ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ }

{ وَ زَاتِقَبْ } أي فانتظر { يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ } اختلفوا في هذا الدخان ووقته على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه دخان يجيء قبل قيام الساعة، فروي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الدخان يجيء فيأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام وروى عبد الله بن أبي مليكة قال غدوت على ابن عباس ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت قلت لم قال طلع الكوكب ذو الذنب فخشيت أن يطرق الدخان وهذا المعنى مروى عن علي وابن عمر وأبي هريرة والحسن.

والثاني: أن قريشا أصابهم جوع فكانوا يرون بينهم وبين السماء دخاناً من الجوع. فروى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث مسروق قال كنا عند عبد الله فدخل علينا رجل فقال جئتكم من المسجد، وتركت رجلاً يقول في هذه الآية { يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ } يغشاهم يوم القيامة دخان يأخذ بأنفاسهم حتى يصيبهم منه كهيئة الزكام فقال عبد الله: من علم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، إنما كان هذا لأن قريشا لما استعصت على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فقالوا { رَبَّنَا كَشِفْ عَنَّا لِعَذَابِنَا إِنَّا مُؤْمِنُونَ } فقال الله تعالى: { إِنَّا كَاشِفُوْا لِعَذَابِنَا قَلِيلاً إِنكُمْ عَائِدُونَ } فكشف عنهم ثم عادوا إلى الكفر فأخذوا يوم بدر فذلك قوله: { يَوْمَ نَبْطِشُ لِبَطْشَةِ الْكُبْرَى } وإلى نحو هذا ذهب مجاهد وأبو العالية والضحاك وابن السائب ومقاتل.

والثالث: أنه يوم فتح مكة لما حجت السماء بالغبرة حكاها الماوردي.

قوله تعالى: { هَذَا عَذَابٌ } أي يقولون هذا عذاب. { رَبَّنَا كَشِفْ عَنَّا لِعَذَابِنَا } فيه قولان.

أحدهما: الجوع.

والثاني: الدخان. { إِنَّا مُؤْمِنُونَ } بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن.

{ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى } أي من أين لهم التذکر والاعتاظ بعد نزول هذا البلاء { وَ } حالهم أنه { قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ } أي ظاهر الصدق. { ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ } أي أعرضوا ولم يقبلوا قوله { وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونَ } أي هو معلم يعلمه بشر مجنون بادعائه النبوة. قال الله تعالى: { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا } أي زمانا يسيرا وفي العذاب قولان:

أحدهما: الضر الذي نزل بهم كشف بالخصب، هذا على قول ابن مسعود قال مقاتل كشفه إلى يوم بدر.

والثاني: أنه الدخان قاله قتادة.

قوله تعالى: { إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } فيه قولان.

أحدهما: إلى الشرك قاله ابن مسعود.

والثاني: إلى عذاب الله قاله قتادة.

قوله تعالى: { يَوْمَ تَبْطِشُ بَبَطِشَةٍ لُّكْبَرَى } وقرأ الحسن وابن

يعمر وأبو عمران { يَوْمَ } بتاء مرفوعة وفتح الطاء البطشة

بالرفع. قال الزجاج: اللمعنى واذكر يوم ببطش. ولا يجوز أن يكون

منصوبا بقوله منتقمون لأن ما بعد { لِحِنَّ أُنَا } لا يجوز أن يعمل

فيما قبلها.

وفي هذا اليوم قولان:

أحدهما: يوم بدر قاله ابن مسعود وأبي بن كعب وأبو هريرة وأبو

العالية ومجاهد والضحاك.

والثاني: يوم القيامة قاله ابن عباس والحسن. والبطش الأخذ

بقوة.

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدْرَأَ إِلَى

عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَمْ

تُؤْمِنُوا لِي فَاغْتَرِبُوا * فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَوَّلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ * فَاسْرِعْ

بِعِبَادِي لِيَلَّا إِنَّكُمْ مِتُّبَعُونَ * وَبُرُكٌ لِبَحْرٍ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرَفُونَ *

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنِعْمَةً كَانُوا

فِيهَا فَكَيْهِنَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ

السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ }

قوله تعالى: { وَلَقَدْ فَتَنَّا } أي ابتلينا { قَبْلَهُمْ } أي قبل قومك

{ قَوْمِ فِرْعَوْنَ } بارسال موسى إليهم { وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ }

وهو موسى بن عمران.

وفي معنى { كَرِيمٌ } ثلاثة أقوال.

أحدها: حسن الخلق قاله مقاتل.

سبق بيانه [يس/55] إلى قوله { كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا } يعني بني إسرائيل.

{ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ } أي على آل فرعون وفي معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على الحقيقة. روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما من مسلم إلا وله في السماء بابان، باب يصعد فيه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه، وتلا صلى الله عليه وسلم هذه الآية. وقال علي رضي الله عنه: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض مصلى ولا في السماء مصعد عمل، فقال الله تعالى: { فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ }، وإلى نحو هذا ذهب ابن عباس، والضحاك، ومقاتل، وقال ابن عباس: الحمرة التي في السماء بكاؤها. وقال مجاهد: ما مات مؤمن إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحا فقل له أو تبكي؟ قال وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسيحه وتكبيره فيها دوي كدوي النحل؟

والثاني: أن المراد أهل السماء وأهل الأرض، قاله الحسن. ونظير هذا قوله تعالى: { حَتَّى تَضَعَ لُحْرُوبُ أَوْزَارَهَا } [محمد/ 4] أي: أهل الحرب.

والثالث: أن العرب تقول: إذا أرادت تعظيم مهلك عظيم أظلمت الشمس له وكسف القمر لفقده، وبكته الريح والبرق والسماء والأرض، يريدون المبالغة في وصف المصيبة وليس ذلك بكذب منهم، لأنهم جميعا متواطئون عليه، والسماع له يعرف مذهب القائل فيه ونيتهم في قولهم: أظلمت الشمس كادت تظلم وكسف القمر كاد يكسف. ومعنى كاد: هم أن يفعل ولم يفعل؛ قال ابن مفرغ يرثي رجلا: الريح تبكي شجوه والبرق يلمع في غمامه

وقال الآخر:

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمر

أراد: الشمس طالعة تبكي عليه وليست مع طلوعها كاسفة النجوم والقمر، لأنها مظلمة وإنما تكسف بضوئها فنجوم الليل بادية بالنهار، فيكون معنى الكلام: إن الله لما أهلك قوم فرعون لم يبك عليهم باك، ولم يجزع جازع، ولم يوجد لهم فقد، هذا كله كلام ابن قتيبة.

{وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ لَعْدَابِ لُمُهَيْنِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ
 غَالِيًا مِّنْ لُّمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ خَتَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ لَعَالِمِينَ *
 وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ * إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ * إِنْ
 هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ * أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَ لَدِينِ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ
 كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينِ *
 مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنْ يَوْمَ لِفَضْلِ
 مِيقَاتِهِمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَن مَّوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }

قوله تعالى: {مِن لَعْدَابِ لُمُهَيْنِ} يعني قتل الأبناء واستخدام
 النساء والتعب في أعمال فرعون، {إِنَّهُ كَانَ غَالِيًا} أي: جبارا.
 {وَلَقَدْ خَتَرْتَهُمْ} يعني بني إسرائيل {عَلَىٰ عِلْمٍ} علمه الله
 فيهم على عالمي زمانهم، {وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ} كانفراق
 البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك {مَا
 فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ} أي: نعمة ظاهرة.

ثم رجع إلى ذكر كفار مكة، فقال: {إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ
 إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ} يعنون التي تكون في الدنيا {وَمَا نَحْنُ
 بِمُنشَرِينَ} أي: بمبعوثين ف {أْتُوا بِآبَاتِنَا} أي: ابعثوهم لنا
 {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} في البعث وهذا جهل منهم من وجهين:
 أحدهما: أنهم قد رأوا من الآيات ما يكفي في الدلالة فليس لهم
 أن يتنطعوا.

والثاني: أن الإعادة للجزاء وذلك في الآخرة لا في الدنيا، ثم
 خوفهم عذاب الأمم قبلهم فقال: {أَهْمُ خَيْرٌ} أي: أشد وأقوى
 {أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ} أي: ليسوا خيرا منهم. روى أبو هريرة عن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما أدري تبعا، نبي، أو غير نبي.
 وقالت عائشة: لا تسبوا تبعا فإنه كان رجلا صالحا، ألا ترى أن الله
 تعالى ذم قومه ولم يذمه. وقال وهب: أسلم تبع ولم يسلم قومه
 فلذلك ذكر قومه ولم يذكر. وذكر بعض المفسرين أنه كان يعبد
 النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذبوه.

فأما تسميته ب {تَبِعَ} فقال أبو عبيدة: كل ملك من ملوك اليمن
 كان يسمى: تبعا، لأنه يتبع صاحبه، فموضع تبع في الجاهلية
 موضع الخليفة في الإسلام. وقال مقاتل: إنما سمي تبعا لكثرة
 أتباعه واسمه: ملكيكر ب وإنما ذكر قوم تبع لأنهم كانوا أقرب في
 الهلاك إلى كفار مكة من غيرهم. وما بعد هذا قد تقدم [الأنبياء/
 16] [الحجر/ 85] إلى قوله تعالى: {إِنَّ يَوْمَ لِفَضْلِ} وهو يوم
 يفصل الله عز وجل بين العباد {مِيقَاتِهِمْ} أي: ميقاتهم {أَجْمَعِينَ}
 {يَأْتِيهِ الْأُولُونَ وَالْآخِرُونَ.
 {يَوْمَ * يُغْنِي مَوْلَىٰ عَن مَّوْلَىٰ شَيْئًا} فيه قولان:

أحدهما: لا ينفع قريب قريباً، قاله مقاتل. وقال ابن قتيبة: لا
ينغي ولي عن وليه بالقرابة أو غيرها.
والثاني: لا ينفع ابن عم ابن عمه، قاله أبو عبيدة.
{ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } أي: لا يمنعون من عذاب الله { إِلَّا مَنْ رَجِمَ
اللَّهُ } وهم المؤمنون فإنه يشفع بعضهم في بعض.

{ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ * طَعَامٌ لِالْأَئِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي بَطُونِ *
كَغَلِي لَحْمِيمِ * خَذُوهُ وَغَتَّلُوهُ إِلَى سَوَاءِ لَجِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ
رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ لَحْمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنْ هَذَا مَا
كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ * إِنْ لِمُنْقَبِينَ فِي مَقَامِ أَمِينِ * فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ *
يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَرَوَّجْتُهُمْ بَحُورِ
عَيْنِ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ أَمِينِ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا لَمَوْتَ إِلَّا
لَمَوْتَهُ الْأُولَى وَوَقَّهْمُ عَذَابَ لَجِيمِ * فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ
لِقَوْمٍ لَعِظِيمٍ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَزَاتِقَبْ
إِنَّهُمْ مَرْتَقِبُونَ }

{ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ } قد ذكرناها في [الصفات / 62] والأئيم:
الفاجر؛ وقال مقاتل: هو أبو جهل. وقد ذكرنا معنى المهل في
[الكهف / 29].

قوله تعالى: { يَغْلِي فِي بَطُونِ } قرأ ابن كثير، وابن عامر،
وحفص عن عاصم: { يَغْلِي } بالياء والباقون بالتاء. فمن قرأ
{ تغلي } بالتاء فلتأنيث الشجرة. ومن قرأ بالياء حمله على
الطعام. قال أبو علي الفارسي: ولا يجوز أن يحمل الغلي على
المهل لأن المهل ذكر للتشبيه في الذوب وإنما يغلي ما شبه به
{ لِبَطُونِ كَغَلِي لَحْمِيمِ } وهو الماء الحار إذا اشتد غليانه.
قوله تعالى: { خَذُوهُ } أي: يقال للزبانية: خذوه { وَغَتَّلُوهُ } وقرأ
ابن كثير، ونافع، وابن عامر، ويعقوب: بضم التاء، وكسرهما
الباقون؛ قال ابن قتيبة: ومعناه قودوه بالعنف يقال جيء بفلان
يعتل إلى السلطان، وسواء الجحيم وسط النار. قال مقاتل:
الآيات في أبي جهل يضربه الملك من خزان جهنم على رأسه
بمقمة من حديد فتنقب عن دماغه، فيجري دماغه على جسده،
ثم يصب الملك في النقب ماء حميماً قد انتهى حره، فيقع في
بطنه، ثم يقول له الملك: ذق العذاب { إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ }
هذا توبيخ له بذلك. وكان أبو جهل يقول: أنا أعز قريش وأكرمها.
وقرأ الكسائي: { ذُقْ إِنَّكَ } بفتح الهمزة والباقون بكسرهما قال
أبو علي: من كسرهما فالمعنى أنت العزيز في زعمك ومن فتح
فالمعنى أنك.

فإن قيل: كيف سمي بالعزيز وليس به؟

فالجواب: من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه قيل ذلك استهزاء به، قاله سعيد بن جبیر، ومقاتل.

والثاني: أنت العزيز الكريم عند نفسك، قاله قتادة.
والثالث: أنت العزيز في قومك الكريم على أهلك، حكاه الماوردي.
ويقول الخزان لأهل النار: {إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ} أي:
تشكون في كونه.

ثم ذكر مستقر المتقين فقال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ} {
قرأ نافع، وابن عامر: {فِي مَقَامٍ} بضم الميم والباقون بفتحها
قال الفراء: المقام بفتح الميم المكان وبضمها الإقامة.
قوله تعالى: {أَمِينٌ} أي: أمنوا فيه الغير والحوادث وقد ذكرنا
الجنات في [البقرة/ 25] وذكرنا معنى العيون ومعنى متقابلين
في [الحجر/ 45- 47] وذكرنا السندس والإستبرق في [الكهف/
31].

قوله تعالى: {كَذَلِكَ} أي: الأمر كما وصفنا {وَزَوَّجْتَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ}
{ قال المفسرون: المعنى قرناهم بهن وليس من عقد التزويج
قال أبو عبيدة: المعنى جعلنا ذكور أهل الجنة أزواجا {بِحُورٍ عِينٍ}
من النساء تقول للرجل: زوج هذه النعل الفرد بالنعل الفرد. أي:
اجعلهما زوجا والمعنى جعلناهم اثنين اثنين وقال يونس: العرب
لا تقول تزوج بها إنما يقولون تزوجها ومعنى {وَزَوَّجْتَهُمْ بِحُورٍ
عِينٍ} قرناهم. وقال ابن قتيبة: يقال: زوجته امرأة، وزوجته
بامرأة، وقال أبو علي الفارسي: والتنزيل على ما قال يونس وهو
قوله تعالى: {زَوَّجْنَاكَهَا} [الأحزاب/ 37] وما قال زوجناك بها.
فأما الحور فقال مجاهد: الحور النساء النقيات البيضاء. وقال
الفراء: الحوراء البيضاء من الإبل. قال وفي {الحور} العين
لغتان: حور عين، وحير عين، وأنشد:
أزمان عيناء سرور المسير وحوراء عيناء من العين الحير

وقال أبو عبيدة: الحوراء الشديدة بياض بياض العين الشديدة
سواد سوادها. وقد بينا معنى العين في [الصفات/ 48].
قوله تعالى: {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ} فيه قولان:
أحدهما: آمنين من انقطاعها في بعض الأزمنة.
والثاني: آمنين من التخم والأسقام والآفات.
قوله تعالى: {إِلَّا لَمَوْتَةَ أُولَىٰ} فيه ثلاثة أقوال:
أحدها: أنها بمعنى سوى، فتقدير الكلام: لا يدوقون في الجنة
الموت سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا؛ ومثله:
{وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ} [النساء/
22] وقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ
رَبُّكَ} [هود/ 107] أي: سوى ما شاء لهم ربك من الزيادة على
مقدار الدنيا، هذا قول الفراء، والزجاج.

والثاني: أن السعداء حين يموتون يصيرون إلى الروح والريحان. وأسباب من الجنة يرون منازلهم منها، وإذا ماتوا في الدنيا، فكأنهم ماتوا في الجنة، لا تصلهم بأسبابها، ومشاهدتهم إياها، قاله ابن قتيبة.

والثالث: أن {إلا} بمعنى بعد، كما ذكرنا في أحد الوجوه في قوله: {إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ} [النساء/ 22] وهذا قول ابن جرير. قوله تعالى: {فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ} أي: فعل الله ذلك بهم فضلا منه. {فَإِنَّمَا يَسَّرْتَهُ} أي: سهلناه، والكناية عن القرآن {بِلِسَانِكَ} أي: بلغة العرب {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي: لكي يتعظوا فيؤمنوا، {وَأَتَقِبُ} أي: انتظر بهم العذاب {إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ} هلاكك وهذه عند أكثر المفسرين منسوخة بآية السيف، وليس بصحيح.